

الكتاب الرابع عشر

هفوات في الوظائف العقلية

نلاحظ في حياتنا اليومية كثيرا من الأخطاء العارضة أو الهفوات التي ننسبها لمجرد الصدفة ولا نأتي إليها بالألّا إلا في السادر ، فكأننا ننسى بين الفينة والفينة اسم واحد من معارفه أو أصدقائه ، وأحيانا يكون هذا النسيان في مواقف محرّجة ، كأن يكون بادئا في تقديمه لصديق آخر ، وكثيرا ما ننسى المفاتيح أو الساعة أو النقود عند خروجنا من المنزل ، أو ننسى أين وضعنا شيئا معيناً ، ومن الظواهر المنتشرة نسيان السيدات للمفاتيح ، فالكثيرات ممن يضيعن كثيرا من الوقت في البحث عن المفاتيح ، ولا يجدنها إلا ليضيعن ثانياً . ثم إننا كثيرا ما تصدّف منا أخطاء نسميها أحيانا فئات اللسان أو القلم ، فنريد شيئا ونقول غيره ، أو نقول شيئا لا نريده بالمرّة ، ونكون أول المستغربين لما حدث .

نحن نرجع كل ذلك عادة لمجرد الصدفة ، أو ننسبه لعدم الانتباه ، ولا يخطر ببالنا أن هذا مظهر من مظاهر حياتنا الوجدانية العميقة ، وهو مظهر ولو أنه قليل الخطر ، يعتبر عرضا عاديا ولا ينسب إلى الأعراض المرضية بحال من الأحوال ، فإن دراسته فوق أنها شائعة ولذيذة فهي تلقى من الضوء على حياتنا العقلية وعلى أعراض الاضطراب العصبي نفسه ما يجعلها جديرة بالعناية .

ويمكن تقسيم هذه الأخطاء إلى نوعين :

الأول — حركي . ومثاله :

(١) الخطأ في تنفيذ أمر مقصود سواء أكان ذلك كلاما يقال أو يكتب أو غير ذلك من الأعمال .

(٢) تنفيذ أمر لم يقصد الانسان إلى تنفيذه " عن غير قصد " .

الثاني - حسي :

(١) كالنسيان وعدم الالتفات للأشياء .

(٢) أو الإدراك الخاطئ سواء كان بالنسبة للثبات أو في الذاكرة... الخ (١) .

وهذه الهفوات يمكن أن تشبه الأعراض المرضية الخفيفة ، وقد دل البحث على أن هذا الشبه حقيقي ولو أنه ليس كاملا .

وقد وجد فرويد أن هذه الهفوات التي ننسبها للصدفة أو قلة الانتباه ، مسيبة تسيبها حقيقيا ، وذلك بالرغم مما نظنه من تفاهتها ، ومن الغريب أن هذه الفكرة ليست بعيدة عن العرف العام للناس ، فمن المعلوم أننا إذا أهملنا زيارة صديق واحتججنا بحق بكثرة المشاغل ، فإنه لا يقنع بهذا العذر ويظن أن ذلك دليل على فتور العلاقات على كل حال . والرجل الذي ينسى أن يحضر هدية لزوجته في عيد ميلادها ، ويحتج بالمشاغل التي تملأ رأسه لا يجد من زوجته ارتياحا إلى هذا التفسير ، ويجد أنها تقول بحق : ولكنك لم تكن تنسى ذلك في أول عهدنا بالزواج ، والصديق الذي ينسى اسمه يجد في ذلك غضاظة ولا يستريح إلى التفسير البسيط بأنها هفوة من هفوات الذاكرة ، وكأنه يشعر في قرارة نفسه بأن وراء هذا النسيان شيئا . . . الخ ، فالفكرة موجودة عن طريق التجربة العادية للأشخاص العاديين .

(أما تفسير فرويد لهذه الهفوات أو السقطات ، فهو أن كلا منها له معنى خاص ويخدم غرضا خاصا في الحياة العقلية .

فنحنما ننسى شيئا فوراء هذا النسيان دافع ، وهذا الدافع في الغالب لا شعوري صرف ، وليس بينه وبين الشيء المنسى علاقة منطقية مباشرة .

فقد يكون في تذكر هذا الشيء ، بدء سلسلة من الذكريات غير المرغوب فيها لسبب انفعالي ما ، وعلى ذلك يكون النسيان عملية إيجابية تحدث بدون علم الشخص ، وتعمل على تجنب الشعور أن يتنبه إلى أمور يحسن نسيانها .

ومن هذا القبيل ما حدث (للكاتب) إذ قابل شخصاً مصرياً في لندن ، وقد أقبل عليه هذا الشخص في الحال مسلماً باشتياق ، وأجهد الكاتب فكره اجتهاداً كبيراً جداً لكي يذكر متى وأين رأى هذا الشخص أو أن يذكر اسمه ، فلم يستطع إطلاقاً . فلم يسهه إلا أن يد التحية بنفس الحرارة متجنباً أن يضطر إلى الاعتراف بنسيانته لهذا الشخص . وما زال يعد أن تركه يبذل مجهوداً مضاعفاً للتذكر ولكن بلا جدوى . وأخيراً ترك الأمر وأهمله ، حتى أتى يوم خطرت بباله حادثة حضرها أحمد أقربائه في مصر ، وكانت ظروفها في مجموعها مبهجة وعمسا لا يحسن ذكره ، وبغاة برزت إلى ذهنه صورة الشاب الذي قابله فقد كان مرتبطاً ببطل الحادثة — فكان نسيان الشخص في وقته قد وفر عليه ذكر هذه الحادثة — وإذا ذكرنا أن المقابلة كانت في النادي المصري ، حيث يكثر المصريون ، عرفنا أن الدافع للنسيان كان مضاعفاً . ولو تتبعنا كل حادث من حوادث النسيان على سبيل (السهو) كما نسميه ، لوجدنا الدافع الخاص به . ولكن الدوافع تختلف في العمق وفي مقدار المجهود اللازم لكشفها .

وكل أنواع الاضطراب العصبي تعتمد على النسيان ، وفي بعض حالات الهستيريا يفقد الإنسان أجزاء كاملة من ذكرياته . ويحدث أن ينسى في بعض الأحيان اسمه وشخصيته وتاريخه الماضي كله — وقد بين فرويد أنه في هذه الحالات ، كما في حالات نسيان عهد الطفولة ، يكون النسيان ذا غرض محدد . يرمى إلى أن يصبح الشخص جاهلاً بجزء من تاريخه ليس في مقدوره أن يواجهه في الشهور .

ولاشك في أننا ننسى الجزء الأكبر من عهد طفولتنا الزاخر بالتجارب والذكريات والطامع بالانفعالات والعواطف ، ونظن أن هذا النسيان أمر طبيعي بينما هو في الواقع جزء من الطرق الوقائية التي يتبعها العقل لمنع الانقسام الذي لا يحتمله .

وهناك نوع آخر من الهفوات ، هو تداخل النزعات إذ تحل واحدة منها محل أخرى فيريد الشخص أن يقول شيئاً فيجد نفسه يقول شيئاً آخر ، ومن قبيل ذلك ما حدث لرجل كانت امرأته تُجمله الكثير من عملها في المنزل ، وهو كاره ولكنه مضطر إلى ذلك ، لما يبدو عليها من أمارات العصبية ، ولأنهما كانا في بلد أجنبي لا سبيل له فيه إلى استئجار الخدم ومن اليهم ، وكان يحمل طفلها

على ذراعه بالرغم منه ، وهو مضطرب إلى أن يظهر بتظهر الرضا والبشاشة أمام زقار أجنب ، وبينما هو في الحديث معهم إذ أراد أن يقول إن "زوجتي" آتية حالا ، فقال إن "زوجتي" (١) بلنظ المذكر وكان ذلك طبعاً مثار الضحك عندهم ومثار الخجل والغيظ الوقتي عنده .

والدافع هنا قد لا يكون واضحاً كل الوضوح ، وليس من السهل أن نتكلم عن الدوافع ونحن لم نقم بعملية التحليل في وقتها ، ولكن المحتمل أن يكون في ذلك تعبير عن الدور الذي يقوم به مضطرباً وهو دور الزوجة ، فهو يتكلم بلسانها امعانا في تمثيل الدور وقع النزعات المضادة له .

وتأتي بعد ذلك الأخطاء التي يعمل فيها الإنسان شيئاً مثل كسر زجاجة بحركة خاطئة كثيراً ما تكون غير طبيعية بالمرّة ، حتى إنها لتظهر للشاهد كما لو كانت مقصودة . إلى "التعرض" لحوادث الاصطدام وحوادث الطريق بشكل خطر ، قد يؤدي إلى الإصابة في كثير من الأحيان .

فهذه "الحوادث" ليست دائماً بنت الصدفة بل إن منها ما هو "مقصود" إذا اعتبرنا النزعات اللاشعورية ، إما للاعتداء والفتك بالغير ، وإما لعقاب النفس ، كما لو كان في ذلك نوع من الانتحار .

ولعل من أبرز السقطات ما يحدث كثيراً في حالات السرقة والقتل وغيرها من أن يترك المجرم وراءه (دليلاً) عن طريق السهو ، وما أكثر السهو في هذه الحالات . وهو ينسب إلى اضطراب المجرم وقت ارتكاب جرمه — ولكن هذا الاضطراب نفسه دليل على أن عند المجرم نزعة مضادة لارتكاب الجرم ، وهذه النزعة نفسها هي الدافع إلى هذا السهو القاتل ، ولا شك في أن النزعة لعقاب الإنسان لنفسه نزعة موجودة ، وهي تعبير عن القوى الكابتة ضد النزعات الغريزية . "راجع الأنا العليا" .

وأخيراً تأتي إلى دلالة اجتماعية هامة جداً . وهي محاسبة الناس بعضهم لبعض على هذه الهفوات ، فكثيراً ما يفسر الإنسان الهفوة التي تقع قبله تفسيراً

لا تساهل فيه ، ولا يقبل في ذلك عذرا ، ويعتبر أن الشخص الآخر قد " وقع
بلسانه " كما يقال ، وكثيرا ما يدافع المخطئ عن نفسه دفاعا حارا ، بأنه لم
يقصد ، وهو حقيقة لم يقصد ما وقع منه ، وإن حرارة الدفاع لتزيد ، لأن
الدافع الذي دفعه إلى الهفوة دافع مجهول منه نفسه ، ويراد أن يظل مجهولا .

ومن المعروف أن كثيرا من المناوشات العائلية خصوصا بين الأزواج تقع
حول التوافه من الأمور . ولكن هذه التوافه لها أهميتها الكبيرة لأن انتهازها
دليل على وجود الدوافع العميقة للنزاع والعراك . وأى حل لأمثال هذه المشا كل يدور
حول حوادث النزاع نفسه حل ناقص ، إذ يجب أن يتناول الحل الدوافع
الأساسية أولا .